غسان كنفاني .. حكايات عن الشاب الوسيم

بديعة زيدان

صرحت جولدا مائير، رئيسة وزراء الاحتلال السابقة، بعد اغتيال الأديب والروائي الفلسطيني غسان كنفاني، عن طريق تفجير مركبته في منطقة "الحازمية" قرب العاصمة اللبنانية بيروت، بأن "إسرائيل باغتياله تخلصت من كتيبة دبابات والآلاف من المخربين، فكلماته كانت تزعجنا".

ولا غرابة في ذلك، فهو الذي قال يوما "أموت وسلاحي بيدي، لا أن أحيا وسلاحي بيد عدوي".

ولم يكن كنفاني مجرد روائي من الرواد في فلسطين، بل كان منظراً، ومفكراً، وفيلسوفاً، وفناناً، فدائياً بامتياز، شكل رمزاً للكثيرين، إن لم يكن للأغلبية الساحقة في فلسطين، وللعديد من التقدميين العرب، وفي مختلف أنحاء العالم.

سعداوي: انه برقوق نيسان

ولعل هذا ما ينعكس في تأثر العديد من الكتاب والروائيين العرب، ممن عاصروه، وحتى يومنا هذا، بما كتب .. ويقول الروائي العراقي أحمد سعداوي، الفائز بالجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر) العام ٢٠١٤ عن روايته "فرانكشتاين في بغداد" :

إنه برقوق نيسان .. مرت مؤخراً الذكرى الثالثة والأربعين على اغتيال غسّان كنفاني، الذي قضى في عملية تفجير للموساد الاسرائيلي في الثامن من تموز في العام١٩٧٢.. معترفاً: هناك شيء شخصي مع كنفاني، يعود الى بدايات التسعينات من القرن الماضي، في وقت لم يكن فيه إنترنت ولا فيسبوك ولا أي شيء، كانت هناك " مجلات"، تقتنيها من المكتبات وشارع المتنبي وتقرأ مقالات عن هذا الكاتب وذاك. فيصبح لديك دليل شخصي للبحث عن أسماء مؤلفين وكتب، ومن خلال ذلك تعرفت على "رجال في الشمس" ولكني لم أعثر عليها في المكتبات.

وأضاف: كانت قديمة بالصدور، وكان هناك حصار على العراق، ومنع حتى للكتب، وما لم يضطر مواطنٌ

ما الى اخراج ما في مكتبته وبيعه على الرصيف، فلم نكن لنتعرف على عناوين كثيرة. . وجدت "رجال في الشمس" بالمصادفة، في مخزن المكتبة في معهد المعلمين، وجدتها مع روايات أخرى في مجلد واحد، ثم راجعت الموجود فكان أربع أو خمس مجلدات هي كل تراث كنفاني الكتابي.. شيء مذهل.

استغرقت في قراءة مجلد الروايات عدة أيام، وأعدت قراءة رواية "رجال في الشمس" عدة مرات، ثم استعرت مجلد القصص القصيرة الكبير، ثم المسرحيات، ثم المقالات الادبية، ثم مجلد المقالات السياسية.. قرأت كل قصاصات كنفاني التي ظل يسطرها حتى يوم استشهاده.

أعجبتني لغة كنفاني كثيراً، والتحولات التي تجري في رواياته، أما الصدمة ذات المذاق الغريب، فهو ما عايشته وأنا أقرأ في رواية "برقوق نيسان"، وهي الرواية الأخيرة التي كان يكتب فيها.. كنت مندمجاً مع الأحداث، وأتذكر مشهد البطل في مخزن الطحين أو المطحنة، ثم قلبت الصفحة لأتابع الأحداث فوجدتها بيضاء.. لم يستطع كنفاني إكمالها، لأن يده وجدت لاحقاً، بعد التفجير الموسادي، على سطح إحدى البنايات المجاورة لمكان الحادث.

حينها قررت اكمال احداث الرواية. أن أكملها من حيث انتهت. جربت هذا الأمر عدة مرات. ثم تخليت عن الفكرة المجنونة لاحقاً.

جزء من دوافع الاهتمام بالكتابة يمكن أن افسره، استناداً الى لحظة "برقوق نيسان" في ذاكرتي، هو رغبتي أن لا يتحكم مصير ما في الروايات التي أقرأها، استناداً الى مقدمة اساسية من المخرج العالمي جيمس كاميرون "أنا أخرج الافلام التي احلم بمشاهدتها في السينما" ... أنا أكتب الروايات التي أحلم بقراءتها. صرت كاتباً، حتى أتحرر من سطوة "موساد" ما يفجر سيارة الكاتب، ويحرمني من أكمال القراءة في الرواية التي اعجبتني.

محمود الريماوي : القائد المرح

ويسرد الكاتب والأديب محمود الريماوي ذكريات ربطته بـ"القائد المرح": بدأت صلتي بالشهيد غسان كنفاني عن (أو من) طريق الأديب الراحل سهيل إدريس. كنت منذ اواخر العام ١٩٦٧، قد بدأت النشر في مجلة "الآداب" التي كان الراحل ادريس يترأس تحريرها. في نيسان من العام ١٩٦٨ زرت ادريس في مكتبه في مقر مجلة "الآداب" ودار الآداب للنشر في وسط البلد في بيروت في شارع الخندق الغميق. ابديت له رغبتي بالعمل في الصحافة، وكنت اتوهم انه يمكنني العمل معه في المجلة.. في واقع الامر انه كان يقوم بنفسه بالعمل تساعده زوجته القاصة عايدة مطرجي ادريس (اين هي الآن هذه السيدة الرصينة الموهوبة؟).. ابلغني ادريس انه سيتحدث بشأني مع غسان كنفاني، الذي كان يعمل آنذاك في دار الصياد

مديرا لتحرير صحيفة "الأنوار"، ورئيساً لتحرير ملحقها الثقافي.. زرت غسان كنفاني ورحب بي باقتضاب ولكن بمودة خالصة، وقال انه يمكنني التعاون على الفور مع الملحق، وبالذات مع مدير تحرير الملحق الشاعر روبير غانم.. جرى التعاون بسرعة، بنظام العمل بالقطعة.. كنت اكتب قطعتين في العدد الواحد.

غسان كنفاني أيامها كان دائم الانشغال، وكنا نتبادل التحيات وعبارات المودة العفوية. كما كتبت حينها في مجلة "الصياد" التي كان يدير تحريرها ذو الفقار قبيسي. كان غسان يكتب في الملحق صفحة ساخرة يوقعها باسم فارس فارس.. ساخرة لكنها تتناول مواضيع ثقافية جدية، وتضم مقطوعات قصيرة فكهة، واشار لي مرة كاتباً اني اواظب على الحديث بصوت منخفض يكاد يكون هامسا مع روبير غانم، الذي يتوانى عن الاحتفاظ بصوته العالي الصارخ!.

بعد نحو سنة من ذلك التاريخ فاتحني غسان كنفاني انه ينوي اصدار مجلة باسم "الهدف" ، وعرض عليَّ ان انتقل معه الى تلك المجلة محررا ادبيا فيها. وهكذا كان، وقد كتبت فيها باسم: م. سفيان، وهو الذي اختار لي هذا الاسم المستعار. ورغم ان غسان كان علما في الصحافة الأدبية إلا أنه اتاح لي انا الشاب ابن العشرين سنة حرية كاملة في الإشراف على صفحتين ثقافيتين في المجلة. وأذكر من بين ما اذكره ان الشاعر ادونيس كتب آنذاك في القسم الثقافي الذي كنت أحرره، لكن غسان نفسه لم يكتب، اذ كان قليل النشر في الصحف والمجلات، ويفضل ان تصدر اعماله الإبداعية في كتب دون ان يكون اي جزء منها قد نشر هنا أو هناك.

صلتي بغسان في "الهدف" كانت صلة مودة واحترام وعلاقة عمل، وهو طاقة جبارة في العمل، يتمتع بصفات القيادة دون ان يكون تسلطيا، ولا يفقد مع ضغط العمل روح السخرية والمرح، وهو مثقف عضوي عميق الصلة بالبيئة الشعبية، وهو في الوقت ذاته شخص متمدن ومنفتح اجتماعياً وناضج انسانيا وواسع الأفق. وكان يستغل فسحات يسيرة من الوقت للكتابة الروائية... كان يكتفي بقليل من التعديلات بقلم الحبر الأسود الذي كان يكتب به.. لقد رافقته أكثر من مرة في سيارته الصغيرة التي انفجرت به، ومن المؤسف وهذا ما انتبهتُ اليه متأخراً، انه لم يكن يتمتع بأية حراسة، لم يكن الأمر يخلو من رومانسية ثورية!.

راسم المدهون : الشاب الوسيم في غزة

كان العام ١٩٦٦ في ما أذكر.. هرعنا يومها إلى قاعة "سينما النصر" في مدينة غزة لحضور ندوة أدبية عقدت على هامش مؤتمر لاتحاد كتاب فلسطين، كان يعقد في المدينة. كانت المفاجأة أجمل من مؤتمر يعقد وينتخب هيئة مسؤولة للاتحاد وينفضُ كأن شيئاً لم يكن، حيث أعلن عريف الندوة دعوته "الكاتب الشاب" غسان كنفاني .. شاب بالغ الوسامة، ناحل، وفي مقتبل العمر صعد المنبر ليتحدث بلهجة تمزج الحلم بالواقع في مناخ كان أقرب للحلم.

حدثنا عن شعر جميل جاءه من "هناك"، من "الجهة الأخرى" التي صارت "غامضة"، ومحجوبة عن أخبار الإذاعات والصحف، لأنها صارت جزءاً من الكيان الذي نشأ على أنقاضنا. أخبرنا غسان كنفاني يومها أنه سيقرأ قصائد "وصلته" لعدد من شعراء الجليل، وراح يردّد أسماء محمود درويش، وتوفيق زياد، وسميح القاسم، وفوزي الأسمر، وغيرهم ثم ليبدأ القراءة: "يحكون في بلادنا يحكون في شجن .. عن صاحبي الذي مضى وعاد في كفن".

فيما بعد سأعرف أن تلك المفاجأة الرائعة، وكانت جزءاً من جهد بذله غسان كنفاني لتقديم شعراء جليل فلسطين للقارئ العربي في كتاب لعلّه النافذة الأولى والأجمل التي أطلّ منها شعراء كانوا منسيين ومنفيين خارج أسوار كتبنا وصحفنا ووعينا.

حتى هزيمة الخامس من حزيران العام ١٩٦٧ لم أكن قرأت قصصاً لغسان، وكانت معرفتي الوحيدة بأدبه هي قراءة روايته الأشهر، وفي رأيي الأهم، وأعني "رجال في الشمس"، التي قدمتها الإذاعة الأشهر والأوسع انتشاراً في ستينات القرن الماضي (صوت العرب) من القاهرة كتمثيلية مسلسلة... "رجال في الشمس" نشرت يوم كان غسان لم يبلغ بعد منتصف العشرينيات من عمره القصير زمنياً.

يذكر أصدقاء غسان في تلك الأيام مواظبته على ارتياد "مقهى الفاروق"، وسط العاصمة السورية دمشق، ويذكر فضل النقيب أنه كان يكتب كثيراً، ويمزّق ما يكتب في طموح لما هو أجمل وأكثر حيوية في التعبير عن بعض ما يريد.

البركان

ولا يمكن الكتابة عن كنفاني دون الحديث عن مرثية الشاعر الكبير الغائب الحاضر محمود درويش فيه، والتي حملت عنوان "محاولة رثاء بركان"، وجاء فيها: اكتملت رؤياك، ولن يكتمل جسدك.. تبقى شظايا منه ضائعة في الريح، وعلى سطوح منازل الجيران، وفي ملفات التحقيق.. ولم يكتمل حضورنا نحن الأحياء ـ طبقاً لكل الوثائق... نحن الأحياء مجازاً، وأنت الميت ـ طبقاً لكل الوثائق، أنت الميت مجازاً.. نحزنُ من أجلك؟ لا .. نبكي من أجلك؟ لا .. أخرجتنا من صف المشاهدين دفعة واحدة وصرنا نتشوف الفعل، ولا نفعل. أعطيتنا القدرة على الحزن، وعلى الحقد، وعلى الانتساب. وكنا نتعاطى الحزن بالأقراص، ونتعاطى الحقد بالحقن، ونتعاطى الانتساب بالوراثة.

و"مرة واحدة، أعطيتنا القدرة على الاقتراب من أنفسنا، وعلى الرغبة في الدخول إلى جلودنا التي خرجنا منها دون أن ندري، الآن ندري ـ حين خرجت منا.. حملناك في كيس ووضعناك في جنازة بمصاحبة الأناشيد الرديئة، تماما كما حملنا الوطن في كيس، ووضعناه في جنازة لم تنته حتى الآن، وبمصاحبة الأناشيد الرديئة...

كم يشبهك الوطن!، وكم تشبه الوطن!".

وقال درويش في مقطع آخر من المرثية : والموت دائما رفيق الجمال. جميل أنت في الموت يا غسان. بلغ جمالك الذروة حين يئس الموت منك وانتحر. لقد انتحر الموت فيك. انفجر الموت فيك لأنك تحمله منذ أكثر من عشرين سنة ولا تسمح له بالولادة. اكتمل الآن بك، واكتملت به. ونحن حملناكم ـ أنت والوطن والموت ـ حملناكم في كيس ووضعناكم في جنازة رديئة الأناشيد. ولم نعرف من نرثي منكم. فالكل قابل للرثاء. وكنا قد أسلمنا أنفسنا للموت الطبيعي.

وصرخ حينها: أيها الفلسطينيون... إحذروا الموت الطبيعي!. هذه هي اللغة الوحيدة التي عثرنا عليها بين أشلاء غسان كنفاني... ويا أيها الكتّاب... إرفعوا أقلامكم عن دمه المتعدد! هذه هي الصيحة الوحيدة التي يقولها صمته الفاصل بين وداع المنفى ولقاء الوطن.

(.....) لا يكون الفلسطيني فلسطينيا إلا في حضرة الموت. قولوا للرجال المقيمين في الشمس أن يترجلوا ويعودوا من رحلتهم، لأن غسان كنفاني يبعثر أشلاءه ويتكامل. لقد حقق التطابق النهائي بينه وبين الوطن... أهكذا؟. نعم هكذا ـ حين تزول الفوارق بين الأجساد وبين الأوطان ـ ويصير الكل في كيس واحد، تنزل العودة من الأناشيد الرديئة إلى البندقية الجيدة، ولا تكون الحياة مجازية.. وهكذا ـ تكون الهجرة شكلا محورا للعودة.

المنزل في عكا

وإرث غسان كنفاني لا يزال حيّاً يرزق بأزقة مدينة عكا، التي ولد فيها في الثامن من نيسان العام ١٩٣٦، أي فترة اندلاع الثورة الفلسطينية الكبرى.. كان الوحيد من بين أشقائه وشقيقاته الذي ولد في عكا ..الحجر وبلاط البيت ودرابزين الشرفة والعمارة، بفنها الشرقي، باقية وشاهدة على ولادة غسان كنفاني الأديب والمناضل.

تسكن عائلة كاملة منصور البشر بيت غسان كنفاني الذي ولد فيه، في شارع بدلته الرواية الصهيونية إلى اسم "موشيه تسوري" وسرقت المنزل عائله صهيونية محاولة طمس كل ما فيه من ذاكرة عربية، إلا أن القدر استعاده ثانية من الزمن المسروق إلى عائلة منصور الفلسطينية، التي اشترت المنزل العام ١٩٦٩.

وبات البيت مزاراً للمهتمين بشأنه في السنوات التالية، وقبل عامين حضر ابن أخت غسان كنفاني من أميركا وزار وجال في البيت الكائن قرب السور الشرقي لمدينة عكا القديمة.

ويعمل العديد من الشباب الفلسطيني في الداخل الفلسطيني على ترسيخ إرث كنفاني، والحفاظ على إنتاجه الأدبي ونضاله السياسي بتمريره للأجيال الصاعدة، فقام الحراك الوطني الشبابي في مدينة عكا

بإطلاق اسمه على دوار بالشارع الذي يضم منزله، قبل ثلاثة أعوام، في ذكرى رحيله الأربعين حينها، رغم رفض رئيس بلدية عكا الإسرائيلي، حيث لا يزال الاسم الرسمي للشارع "المدفع"، وهو لربما، ودون قصد، يرمز لكنفاني الذي كان "مدفعاً" هدد أمن إسرائيل بالكلمات.

المشهد الأخير

وفي كتابه الصادر حديثاً عن دار الرعاة في رام الله، يسرد بسام أبو شريف ما أسماه "المشهد الأخير" في حياة كنفاني، والذي يحمل الكتاب اسمه، فيقول: كان السابع من تموز هو اليوم الذي سبق اغتيال كنفاني، وفي ليلة السابع من تموز أنهينا العمل في مجلة الهدف، وخرجنا سوياً من مكاتبها في كورنيش المزرعة .. حمل غسان معه بعض الملفات ليقرأها في المنزل تحضيراً لإرسالها إلى المطبعة في اليوم التالي. وقفنا عند باب سيارته "القديمة الجديدة" الأوستين البيضاء، فقلت له: لماذا لا نذهب إلى ملهى لقضاء الليلة، وبإمكانك أن تنام في شقتي .. أخشى عليك من طريق بيتك، فهو موحش وخطير".

ويضيف: كان غسان يسكن في شقة شقيقته فايزة التي تقيم في الكويت، وكانت الشقة في مار تقلا ... رفض غسان العرض كون أن فايزة وصلت من الكويت أمس، وأنها ستقلق إن لم يتوجه إليها، ورغم أنني عرضت عليه إخبارها بأنه سيبقى برفقتي، إلا أنه رفض أيضاً، كون أن ابنتها لميس تنتظره بفارغ الصبر، وسيقوم باصطحابها في اليوم التالي للتسجيل في الجامعة الأميركية، بعد أن أنهت التوجيهي، وكانت من الأوائل"، هي التي كتب لها الكثير من قصص الأطفال حين كانت صغيرة.

ويواصل أبو شريف سرد الحكاية: باءت كل محاولاتي بالفشل، وها هو ينشد نحو منزله الخطير، لأن الأعز على قلبه ينتظرونه في مار تقلا .. آني زوجته، وليلى ابنته، وفايزة شقيقته، وملهمته ابنتها لميس .. كأن القدر كان له بالمرصاد، كأنه يعلم أن الأعزاء سيشدونه إلى مار تقلا .. إلى حتفه.

دون تحفظ

الحديث عن كنفاني لا ينتهي، فلكل فلسطيني تقريباً له معه أو مع كتاباته حكاية أو أكثر، وللكثير من العرب والأجانب حكايات معهما أيضاً، لكني فضلت أن أختم بما قاله ذات يوم في حوار أجرته معه إذاعة اسكندنافية في أيام حياته الأخيرة، حيث قال: أنا في العمل السياسي أدافع عن الحزب الذي أنتمي له، لكنني في الأدب الروائي والقصصي أطلق لأبطال قصصي ورواياتي حرية أن يعبروا عن مواقفهم دون تحفظ .. كنفاني الذي كان قال ذات يوم، وكأنه يختصر حكايته "خلقت أكتاف الرجال لحمل البنادق، فإما عظماء فوق الأرض، أو عظاماً في جوفها".